

الهجرة النبوية

كل يوم يرحل الناس من مكان إلى مكان وينتقلون من بلد إلى بلد ، وقد يكون الراحل ملكا عظيما تتوج باسمه الأحكام وتشرع القوانين وتأمير بأمره الكتاب وترفع البنود وتخفق الاعلام ، وقد يكون أميرا واسع السلطان تغتو له الرقاب ، وقد يكون ذا جاه عريض يخشى الناس بأسه ويتزلفون اليه ويسرفون في حفاوتهم به ، وقد تكون الرحلة جملا يضرب في البداء ويقطع أغوار الصحراء ونجادهما ، وقد تكون سفينة تمخر في عباب الماء وتهزأ بالعواصف والأنواء وقد تكون قطارا ينساب في الوديان ويمر بالقرى والديساكر مروراً لطيف وقد تكون طائفة تدوى في طبقات الهواء وتطن في آذان سكان السماء

وقد يجمع للراحل خلق كثير يضيق بهم رحب الفضاء فيودعونه أكرم توديع ويحيونه أطيب تحية ، ويتذنون له سفرا سعيدا ومقاما محمودا وعودا مشهودا وقد تكون الرحلة طويلة المدى تجمع بين المشارق والمغارب وتصل ما بين الشمال والجنوب .

قد يكون ذلك كله ولكن أحدا من الناس لم يفكر في أن يتخذ من هذه الرحلات معالم لتاريخ البشرية تنسب إليها أحداثه وتضاف أعوامه . ولكن ما بال محمد وقد هاجر من قرية إلى أخرى لا تبعد عنها كثيرا يعتبر المسلمون في جميع أقطار العالم هجرته أعظم حدث في التاريخ به يؤرخون أيامهم ويعرفون أعوامهم .

ما بال محمد وقد نبا به الموطن ولحقته به صنوف الأذى وهو في أهله فيخرج من بلدة تحت أستار الدجى وجنح الظلام لا يحتمى به أحد ولا يشيعه إنسان ولا يصحبه إلا صديق استخلصه لنفسه من الناس جميعا ومع ذلك يتخذ المسلمون هجرته نقطة تحول في تاريخ الإنسانية تضاف إليها حوادث التاريخ من قبلها ومن بعدها

ما بال محمد وقد خرج من مكة حين اتهم به قومه وعزموا على قتله بعد
خروجه نصراً للإنسانية برمتها وفارقاً بين عمدين عهد الظلم والجهالة ، وعهد النور
والمبادئ السامية . فقد روى ابن هشام أن قريشاً حين رأيت أن رسول الله
ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه
من المهاجرين اليهم عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منعه وحذروا خروج الرسول
اليهم فاجتمعوا في دار الندوة — وهي دار قصي بن كلاب — ليتشاوروا في الأمر
ويقلبوه على وجوهه .

فقال قاتل منهم احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب
الشعراء أمثاله . وقال آخر . لا بل نخرجه من بين أظهرنا فنفيه من بلادنا فإذا أخرج
عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع .

فقام أبو جهل بن هشام وقال والله أن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد أرى
أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليلاً نسياً وسيطاً فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً
صار ما ثم يعبدوا إليه فيضربوه ضربه رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ويتفرق
دمه في القبائل جميعاً فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً لئلا أخذ بالتأثر
والمطالبة بالدم .

ونال الرأي اعجاب الشيطان في صورة ذلك الشيخ التجدي الذي وقف بباب دار
الندوة واستراح له الحاضرون جميعاً وعقدوا النية على تنفيذه وهموا به .

وفي هذا يقول الله تعالى جل ثناؤه : وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو
يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

هذا هو السبب المباشر للهجرة النبوية على حسب ما يظهر للناس ولكن السبب
الحقيقي أنه ﷺ هاجر امتثالاً لأمر الله وطاعة لتلك الرسالة التي نزل بها جبريل
عليه السلام من عند الله ولو أن الله تعالى أراد له البقاء بين قومه والنصر عليهم وهو
بين أظهرهم ما استطاع أحد أن يعارض إرادة الله .

وبعد فإن هجرة محمد ﷺ كانت نصراً مؤزوراً لدين الله، وللبادئ الإنسانية السامية التي اشتملت عليها الشرائع الإلهية، إنها فرقّت بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال، إنها حطمت الأوثان، وجمعت القلوب على عبادة الرحمن، إنها ألقت بين القبائل المتنافرة وفتحت للناس جميعاً طريق الخير، وأرثهم سبيل السعادة، إنها علمت الإنسان معاني العدل والرحمة، وألهمته حب الكرامة والعيش في ظلال ذلك القانون السماوي الذي هبط بصلة بين السماء والأرض، إنها نصبت للناس في جميع بقاع العالم أغراضاً سامية ورسمت لهم مثلاً عالية لو أنهم أخذوا نفوسهم بها لتمت السعادة لبني الإنسان جميعاً، لهذا كانت الهجرة مبدأً لاتجاه جديد في تاريخ الإنسان يقصد منه إسعاد النوع برمته.

ولهذا يحتفل بها المسلمون في جميع بقاع العالم ولعلنا حين نحتفل بتلك الذكرى تتجلى أمامنا تلك الصفات الشريفة والأخلاق الكريمة التي تتمثل في هجرته ﷺ فنجمل أنفسنا بها ونقتدى بصاحب الهجرة المباركة في أفعالنا وأقوالنا.

محمد علي مصطفى

مساعد كبير مفتش اللغة العربية بوزارة المعارف